﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ٦٤﴾ [هود: 64]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد تقرير الحقائقِ يأتي تقريرُ الأدلة والبراهين

لَمّا ذكرتِ الآية السّابقة البيِّنة، وأنَّ صالحًا ﷺ ادَّعى أنَّه مرسَلٌ من الله تعالى، وأنَّه لن يحيد عن طريق الحقِّ والفوز، أراد أن يذكر لقومه ما يكون علامةً على صدقِه فيما زعم، فجاءَ بالنّاقةِ شاهدًا على كونهمْ والأوْثانِ سَواءً في عدم اهتدائهمْ، وقدْ أوردَ في الآيةِ السّابقةِ قولهُ: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ وهو أسلوبٌ إنشائيّ مثيرٌ للذّهنِ باعثٌ على التّفكّرِ للإجابةِ عن ذاك الاستفهام أوْ تقريرِه، ثمَّ جاءَ بخبرِ النّاقةِ وما كانَ منْ معجزتِه فجعلَ الاستفهامَ توطئةً لخبرِ النّاقةِ ظنًّا منهُ أنَّ ذلكَ أقومُ في قَبولِهمُ الحَقَّ ودعوةَ الهدى، فالمناسبةُ بين الآيات تكمُن في الانتقال من تقرير النبوّة إلى تقرير دليل النُّبوّة.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَايَةٗ﴾: أصلُ الآية: العلامَة الثّابتة الدّالَّةُ على أمْرٍ منْ شَأْنِه أنْ يَخْفَى، وهي في القرآن على وجهين: الأوَّل: العِبرة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ﴾ [المؤمنون: 50]، أي: عِبرة يُعتبر بها، والثّاني: العلامة، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: 22]، أي: ومن العلامات على ربوبيته. والوجهان مُتقاربان يَصلح استعمالُ أحدِهما في موضع الآخر[1].

والآيَة مفرد آيات، وآياتُ اللّهِ: دلائله وعَجائِبُه[2]، والمقصود بـ (آيةً) في الآية: المعجزة الدّالة على صِدْق النُّبوَّة[3].

(1) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 92.
(2) الزبيدي، تاج العروس: (أيي).
(3) المراغي، تفسير المراغي: 12/55.

2) ﴿فَذَرُوهَا﴾: أصلُ (وذر): القَذْفُ والتّرْكُ[1]، يُقالُ: فُلانٌ يَذَرُ الشَّيءَ، أي: يَقذفه لِقلَّةِ اعتِدادِهِ به. وأصله الحسيّ مأخوذٌ من الوذرة، وهي قِطعةُ لحمٍ صغيرةٍ سُمِّيت بذلك لِقلَّة الاعتداد بها، والجمع وُذَر[2]. والعَرَبُ قد أماتتِ المَصْدرَ من (يَذر) والفِعْلَ الماضِي، واسْتَعْمَلَتْه في الحاضِر والأمْر، فإذا أرادُوا المَصْدر قالُوا: ذَرْه تركًا[3]. ومعنى ﴿فَذَرُوهَا﴾: اتركوها.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لكلِّ نبيٍّ مُعجزةٌ دالَّة على صِدْقه فيما يبلِّغه عن ربِّه

تُبيِّن الآيةُ قولَ صالح ﷺ لقومه بعد ظهور آية النّاقة: يا قوم هذه ناقةُ اللّهِ جعَلَها لكم حُجَّةً وعلامةً تدُلُّ على صِدقي فيما أدعوكم إليه، فاترُكوها تأكُلْ في أرضِ اللّه؛ فليس عليكم رِزقُها، ولا تَنالوا النّاقةَ بشَيءٍ من الأذى؛ فإنَّكم لو فعلتُم ذلك عرَّضْتُم أنفسَكم لعذاب اللّه العاجِل القَريب[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ عطفِ ﴿وَيَٰقَوْمِ﴾ على ما سبقَ:

استقلالُ الجملِ بمعنًى لا يُلغي وصلَ إحداها بالأخرى

عطفُ قولِه تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ على ما سبقَ مُؤْذِنٌ بأنَّ العطفَ منْ مقولِ صالحٍ ﷺ لا منْ حكايةِ اللّهِ تعالى؛ فإنَّ اتّحادَ المنادى يوجبُ عدمَ العطفِ[5]، فضلًا عن أنّ العطفَ يقتضي المغايرةَ.

وفي العطفِ إشارةٌ إلى أنَّ كلَّ نداءٍ متّصلٌ بالآخرِ، وأنّ بعضَها آخذٌ برقابِ بعضٍ لا يستغني أحدُها عن الآخرِ لكنّهُ ليسَ منْ قبيلِ الوصلِ[6]، فهما نداءان استقلَّ كلُّ واحدٍ منهما بمعنًى، وارتبطَ كلٌّ منهما بالآخر ارتباطَ الدَّليل بالدَّعوى.

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (وذر).
(2) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (وذر).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (وذر).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 12/455، ورشيد رضا، تفسير المنار: 12/103.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/53.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/54.

بلاغةُ تَكْرارِ النِّداء:

شـدَّةُ العَماية وغلبةُ الغَواية تُـحـوِجـان إلى الإيـقـاظِ والمراجعةِ

استهلّ صالحٌ عليه السلام خطابهُ بقولهِ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾، وغايةُ خطابِ النّداءِ طلبُ إقبالِ ذهنِ المنادى[1] كيْ يعيَ الكلامَ الملقى إليهِ لأهميتهِ، ولَمّا كانَ النّداءُ متكرِّرًا هنا كانَ الغرضُ منهُ توكيدَهُ لما لهُ منْ أهميةٍ بالغةٍ، ووجه هذه الأهميَّة أنَّ القومَ احتاجوا إلى نداءٍ آخر يُحرِّك أذهانَهم، ويوقظ قلوبَهم، ويُسمع آذانهم البعيدة، فوجودُ النِّداء وتَكراره دليلٌ على بعد القوم عن الحقِّ، وشدَّةِ التصاقِهم بالباطلِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ باسم الإشارةِ:

المشاهدةُ أبلغُ من الأخبارِ المجرَّدةِ وأرسخ في تحقيقِ المقصود

جاءَ التّعبيرُ باسم الإشارةِ في قولهِ تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ لما تعطيهِ من معنى التّنبيهِ والإشارةِ، أيْ: انتبهوا إلى الآيةِ المعجزةِ، وها أنا أشيرُ إليها[2]، والإشارةُ دالّةٌ على الحضورِ والمعاينةِ، وهيَ أبلغُ في إيصالِ المعنى المقصودِ، من مجرَّدِ ذكرِه غيابًا، مع ما فيه تصوير المشهدِ، فهذا يقتضي أنْ تكونَ النّاقةُ حاضرةً معاينةً، والإشارةُ إليها إظهارٌ لمعجزتهِ ليروها بأعينِهمْ عسى أنْ تلينَ قناةُ عنادِهمْ، كما أنَّ فيه إقامةَ الحجَّة في فهم المقصودِ دون وجودِ احتمال بخلاف المطلوبِ.

دلالةُ التّعريفِ بالإضافةِ:

في النّاقةِ خصوصيةٌ مباينةٌ لغيرِها من النّوقِ بما جعلَها آيةً من الله تعالى

أُضيف لفظُ النّاقة إلى لفظِ الجلالةِ في قولهِ تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ دون أن يقول: (هذه النّاقةُ لكم آية)، وذلك لوُجوه:

الأول: الإشارةُ إلى خصوصيةٍ في تلكَ النّاقةِ لا توجَدُ في سواها من النّوقِ، فقد جعلها معجزةً لنبوّتهِ[3] عليه السلام، فهي لا تشبهُ ما شاهدوهُ من النّوقِ في عظمها وصفاتِها، وهي مباينةٌ لغيرِها في تلكَ الصّفاتِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/50.
(2) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 3/487.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السّنّة: 6/150، والقاسمي، محاسن التأويل: 6/113.

خلقًا وخلقةً، فالإضافة فيها معنى (من)، أي: ناقةٌ من الله لكم، فالله جعلها لكم آيةً منه، ففيه إقامةُ الحجَّة عليهم، مع تكريم المخاطَبين بأن جعل الله لهم آيةً منه.

الثّاني: في تعريفِها بإضافتِها إلى اسمِه تعالى وتركُ تعريفِها بأل تشريفٌ لها[1]؛ فإنَّ الحقَّ سبحانهُ أمرَ بالإحسانِ إليها، وتعظيم حرمتِها كما يقالُ: في الكعبةِ بيتُ اللهِ[2].

الثالث: الإشارةُ إلى خرقِها للعادةِ، ففي إضافتِها إلى اسم الحقِّ سبحانهُ دلالةٌ على أنه خالقُها بقدرتِه تعالى الخارقةِ إذ ليستْ على مثالٍ لانتفاءِ ما يكونُ الشّأنُ أنْ تضافَ إليهِ منْ دواعي وجودِ أمثالِها[3]؛ فهيَ كقولِه في عيسى عليه السلام: كلمةُ اللهِ في أنّهُ مباينٌ لسواهُ من الخلقِ لكونِه من غيرِ أبٍ.

نكتةُ تقديم ﴿لَكُمْ﴾ على ﴿ءَايَةً﴾:

المقدّمُ حالٌ للاختصاصِ والمؤخّرُ حالٌ للإعجازِ وهو من بديعِ اجتماعِ الأحوالِ

قُدِّم الجار والمجرور ﴿لَكُمْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ على ﴿ءَايَةً﴾، وهو في الأصلِ صفةٌ لـ ﴿ءَايَةً﴾؛ فهي في الأصل: هذه ناقة الله آيةً كائنةً لكم، فلمّا تقدمتِ الصفة على الموصوفِ أُعربت حالًا، و﴿ءَايَةً﴾ نفسُها حالٌ[4]، فاجتمعَ للنّاقةِ حالانِ، حالٌ في كونِها خاصةً لكم لأنّكم تشاهدونَها عِيانًا[5]، وهو ما أفادَ الاختصاصَ، وحالٌ أنّها معجزةٌ بما أفادهُ معنى ﴿ءَايَةً﴾ أي: مُعجزةً؛ فأفادَ وظيفةَ النّاقةِ وغايةَ إيجادِها، وهذا منْ بديعِ اجتماعِ الأحوالِ في الشّيءِ الواحدِ.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/222.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/218.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/218.
(4) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 6/348.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 9/322.

سرُّ التّعبيرِ بآيةٍ:

تقابل الألفاظِ الدّالةِ على المعاني المتضادّة تناسقٌ لفظيٌّ وتناسبٌ دلاليٌّ

لمّا جعل قومُ صالح عليه السلام الشّكَّ والرّيبَ شعارًا لهم في قولهم: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ [هود: 62] ناسب أن يُجيبهم عليه السلام بما يدفع شكَّهم بقوله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾، والآيةُ هنا المعجزةُ؛ فعبَّر بالآيةِ لإزالةِ شكّهم[1] قطعًا لأعذارهم، وإقامةً للحجّةِ عليهم؛ فَحَسُنتِ المقابلةُ بين الشَّكِّ والآية؛ لما يحمله لفظُ الشَّكِّ من الاضطراب والقلق، وما يحمله لفظُ الآية من البرهان والحجَّة القاطعة، وبالتَّقابل الدلالي حسُن الانتقاءُ وجَمُل.

معنى الفاءِ:

الفاءُ فصيحةٌ دالّةٌ على شرطٍ محذوفٍ

صدّرَ قولهُ تعالى: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ بالفاءِ الفصيحةِ[2] الدّالةِ على شرطٍ مقدّرٍ ممّا قبلَها، والتَّقدير: إذا كانت آيةً بيّنةً ومعجزةً ظاهرةً لنبيّهِ؛ فاتْرُكوها تأكلْ في أرضِ اللهِ[3].

غرضُ الأمرِ ﴿فَذَرُوهَا﴾:

تحذيرُ الأعداءِ من وقوعِ العذابِ عدالةٌ ورحمة

غرضُ الأمرِ في قولهِ تعالى: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ طلبُ تركِ النّاقةِ تأكل في أرضِ الله تعالى، وهو أمرٌ تحذيريٌّ ملزمٌ لهم؛ لما تعلَّق به من النَّهي وما فُرِّع عنهما من التَّحذير من مسِّ السُّوءِ لهم، إن منعوها من الرّعي، أو آذوها فيصيبهم العذابُ.

توجيهُ تخصيصِ الأكلِ بالذِّكر:

ذكرُ الأكلِ منفردًا من بابِ الاكتفاءِ لتضمُّنهِ الشّربَ وهو مجازٌ عن التّغذّي مطلقًا

لمّا أرشد نبيُّ اللهِ صالحٌ عليه السلام قومَهُ في التّلطُّفِ معَ النّاقةِ؛ خاطبهُمْ بقولهِ: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ مقتصرًا على ذكرِ الأكلِ دون الشُّربِ، معَ أنّها تأكل وتشرب، أيْ: ذروها تأكل وتشرب، أوْ أنْ يكونَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/113.

(2) هيَ الفاء التِي تُفصحُ عن محذوفٍ يقدِّرُه المخاطَبُ من السِّياقِ، وجمهورُ البيانيينَ يشترطونَ تضمينَ المقدَّرِ شرطًا. يُنظر: الدرّة، فتح الكبير المتعال: 1/58.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3726.

الأكلُ مجازًا عن التّناولِ والتّغذّي مطلَقًا[1]، أيْ: ذروها ترعَ النّباتَ وتَشربِ الماءَ؛ فالأكلُ متضمّنٌ الشّربَ؛ كما أُشير في قولهِ تعالى: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ [الشعراء: 155]، وقولِه تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القمر: 28]، فوجه تخصيصِ الأكلِ بالذّكر في هذا السِّياق يظهر في أنَّ السِّياق بُنِيَ على الإجمالِ دون التَّفصيل، فاكتفى بذكرِ الأكل لدلالته على الشُّرب، ولأنَّ الغرضَ هو بيانُ أنَّ المطلوب عدمُ مسِّ النّاقة بسوءٍ. كما أنَّ هذه الآية عيَّنت أدنى المطلوب وهو عدم مسِّها بسوءٍ، بخلاف آية الشعراء والقمر فقد حدَّدتا أنَّ المطلوبَ هو أن يكون للنّاقة شِرْبٌ لا يقربوه، فحسُن في كلِّ سورةٍ ما يُناسبها. كما أنَّ هذه السُّورة وسورة الأعراف ذُكِر فيها إضافة الناقة إلى لفظ الجلالة، وفي كلا السُّورتين ورد ذكر الأكل دون الشرب، بخلاف آيتي الشعراء والقمر فجاء ذكر الناقة نكرةً غير مضافة، فهناك تَنَوُّعٌ يدور بين الإجمال والتَّفصيل في السور، فآثَرَ هنا ذِكْرَ الأكلِ بيانًا للإجمال، ولما بُنيت سورتا الشعراء والقمر على ذكر التفاصيل ناسب ذلك تعيين أنَّ القسمة في المشرب.

نكتةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيّةِ:

آيةُ الله تنطلق دون تحديدٍ أو تقييد وهي بذلك أولى من السّائبة

في قولهِ تعالى: ﴿تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ استعملَ حرفَ الظّرفيةِ ﴿فِىٓ﴾ لبيان أنَّ عليهم أن يتركوها تأكل في اتِّساعٍ من الأرض فلا تُقيَّد بقيدٍ، أو مكانٍ، أو مرعًى دون آخر، بينما لو استعمل حرف (من) لدلَّ على التَّبعيض، الدّال على التَّعيين والتَّحديد. وفيها إشارةٌ لاذعةٌ للمشركين الذين يُسيِّبون السّائبةَ بقصدِ تقديس الأوهام والخرافات وحماقات الآباء والأجداد، وإشارة إلى أنَّ تسييبَ السّائبة ليس لأحدٍ أن يفعله إلّا الله ﷻ.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/288.

بديعُ التَّعريفِ بإضافة ﴿أَرۡضِ﴾ للفظِ الجلالةِ:

يرعى الطُّغاة في أرض الله، من حيث يمنعون من يريده الله فيها

في إضافةِ ﴿أَرۡضِ﴾ إلى الاسم الجليلِ في قولهِ تعالى: ﴿تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ﴾ فوائد منها:

الأولى: تربيةٌ لاستحقاقِها لذلكَ الأمرِ، وأنّهُ سببٌ للأمرِ بتركِها وشأنها[1] وعدم التّعرضِ لها، أو مسّها بسوءٍ.

الثّانية: في الإضافةِ إلى اسمهِ تعالى أنَّ المرادَ بها الأرضُ الّتي أباحَها الحقُّ سبحانهُ للأنعام، والّتي ينبتُ فيها الشّجرُ والكلأُ دونَ ما يقومُ النّاسُ بزراعتهِ والاعتناءِ بهِ وحمايتهِ[2].

الثالثة: إظهارُ منّةِ اللهِ عليهمْ، فللنّاقةِ حقّ في أن ترعى نباتَ الأرضِ؛ فالأرضُ أرضُ اللهِ، والنّاقةُ منْ مخلوقاتهِ، ولها الحقُّ في الانتفاعِ بأرضهِ[3]، ثمّ إنّ الإضافةَ تقتضي الملكَ؛ فاللّهُ تعالى صاحبُ الحقِّ المطلقِ في الأمرِ والنّهي، وقتما يشاءُ فكلّ شيءٍ بإرادتهِ، لكنَّ هؤلاء الطغاة يُريدون التَّصرف في أرض الله تعالى كما يشاؤون، ويمنعون منها من يشاؤون!

بلاغةُ عطفِ النَّهي على الأمرِ:

مباغتةُ الخَصْم في مَنْعِ ما يجولُ في صــدرِه من القبائحِ

لمّا كان الخصمُ لا يتمنى ظهورَ خصمهِ عليهِ بالحجّةِ البالغةِ، ويسعى إلى إفشالِ حجّةِ خصمهِ وإبطالِها ما استطاعَ إلى ذلكَ سبيلًا، كان هذا سببًا وجيهًا لأنْ يعطفَ قولهُ تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾ على قولهِ تعالى: ﴿فَذَرُوهَا﴾ من باب الاحتياطِ درءًا لإقدامهم على قتْلِ النّاقة[4].

نكتةُ استعمالِ مفردةِ ﴿تَمَسُّوهَا﴾:

التَّنبيهُ على الأعلى بالأدنى مبالغةً في النّهيّ

نُهي عن (المسّ) في قولهِ تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾ دونَ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/222.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/447.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/218.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 18/369.

(اللّمسِ) لأنَّ المسَّ هو مقدمةُ الإصابةِ بالشرّ الشامل لأنواع الأذى، أي: لا تتعرضوا لها بشيء مما يسوؤها أصلاً ولا تطرُدوها ولا تريبوها إكرامًا لآية الله تعالى[1]؛ فإنَّ المسَّ موطِئٌ للإصابةِ بما هو أكبرُ منهُ وأعظمُ من اللّمسِ، فإذا نهاهُمْ عن الأدنى فهو نهيٌ عن الأعلى منْ بابِ أوْلى.

معنى الباءِ:

الباءُ للملابسةِ بقصدِ السّوءِ

دخولُ الباءِ على مفردةِ السّوءِ في قولهِ تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ دالٌّ على الملابسةِ، والجارّ والمجرورُ في موضعِ الحالِ من فاعلِ المسّ، أي: لا تمسّوها بقصدِ السّوءِ[2]، أي: حالَ كونكُم ملابسينَ هذا الفعلَ مصرِّينَ عليهِ.

غرضُ تنكيرِ ﴿بِسُوٓءٍ﴾:

اشتمالُ لفظِ السُّوءِ أنواعَ الأذى والضَّرر

لمّا نهاهُم عن أن يمسّوها بسوءٍ أوردَ هذا السّوءَ منكّرًا، ولم يبينْ ما هو، ولذلك فوائد:

الأولى: احتمالُ أن يكونَ سوءًا معروفًا لديهم فنهاهُم عنهُ[3].

الثّانية: ليكونَ شاملًا لأنواعِ الأذى والضّررِ المتوقّعِ منهمْ منْ ضربٍ وطردٍ ومكروهٍ ونحو ذلكَ، فضلًا عنْ أنْ يرتكبوا أكبرَ منهُ منْ عقرٍ وقتلٍ[4].

الثّالثة: في تنكيرِ لفظِ السّوءِ في سياقِ النّهي يتبادرُ إلى الأذهانِ أنَّ الوعيدَ بالعذابِ يترتّبُ على أيِّ نوعٍ منْ أنواعِ الإيذاءِ مهما كانَ صغيرًا؛ في نفسِها أوْ أكلِها أوْ شربِها، فكيفَ وقدْ جاؤوا بأفظعَ منْ ذلكَ بعَقْرِها[5].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/242.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/219.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السّنّة: 6/151.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/222، والحداد، تفسير الحداد: 3/162.
(5) رضا، تفسير المنار: 8/448.

معنى الفاءِ:

مــسُّ الـنّـاقـةِ بسـوءٍ يتسبَّبُ بعذابٍ قريبٍ

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾ عقِبَ قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ دالَّةٌ على السّببيةِ؛ كأنَّه قال: فإنّكم إنْ مسستموها بسوءٍ في ذاتِه أو فيما يؤولُ إليهِ وقعَ بسببِه عليكُم عذابٌ لا تفلتونَ منهُ فيهلككُم[1].

بلاغةُ المجازِ في إسنادِ الأخذِ للعذابِ:

كـنـايـةٌ عـن القهرِ والغلبةِ والإحـاطـةِ والشّمولِ

أُسندَ الأخذُ للعذابِ في قولِه تعالى: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾، والأصلُ في الأخذِ أنْ تتناولَ شيئًا باليدِ، ويستعملُ مجازًا في ملكِ الأشياءِ لزومًا، ويستعملُ في القهرِ والغلبةِ، وبما يوحيهُ الأخذُ من الإحاطةِ والشّمولِ[2] فهو عذابٌ محيطٌ بهم من جميعِ جهاتِهم، فالاستعمالُ المجازيُّ كنايةٌ عن شدَّةِ العذابِ المحيطِ بهم بما لا مفلتَ منه ولا مهربَ.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ في لفظِ الأخذِ:

الإيـذانُ بسرعةِ الإصابةِ وشدّتها وخفائِها

قولُه تعالى: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ من بابِ الاستعارةِ[3] في فعلِ الأخذِ؛ فقدْ شُبّهتِ الإصابةُ بالأخذِ، وصرّحَ بالأخذِ منْ بابِ الاستعارةِ التّصريحيةِ التّبعيةِ، والغرضُ منها بيانُ سرعةِ الإصابةِ وخفائِها وشدّتها فإنَّ أخذهُ سبحانهُ أليمٌ شديدٌ[4].

بلاغةُ الاستعارةِ المكنيَّةِ في لفظِ العذابِ:

تـشـخـيـصُ الـعـذابِ على هيئةِ رجلٍ يأخذُ المعذَّبينَ

ونُزِّلَ لفظُ المسندِ إليهِ ﴿عَذَابٌ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ منزلةَ العاقلِ؛ فقد شبّهتِ الآيةُ العذابَ بشخصٍ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3726.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/227.

(3) أن يكون للّفظ أصلٌ في الوضع اللّغويّ معروفٌ، تدلّ الشّواهد على أنّه اختصّ به حين وضع، ثمّ يستعمله الشّاعر أو غير الشّاعر في غير ذلك الأصل" كقولنا: (رأيتُ أسدًا في المدرسةِ) فالأصل (رأيتُ رجلاً شجاعاً كالأسدِ في المدرسةِ) ثمّ صارت الجملة إلى ما ترى، يُنظر: الجرجانيّ، أسرار البلاغة، ص: 30.

(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/235.

عاقلٍ أُسندَ إليهِ أخذُ المعذبينَ، ثمَّ حذفَ المشبّهَ بهِ، وذكرَ لازمًا منْ لوازمهِ وهو الأخذُ على سبيلِ الاستعارةِ المَكنِيَّةِ الأصليةِ[1]، والغرضُ منها تشخيصُ العذابِ في هيئةِ رجلٍ زيادةً في التّهديدِ والوعيدِ.

نكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿عَذَابٌ﴾:

تعظيمُ العذابِ وتهويلُ شأنه

وأُوردَت مفردةُ ﴿عَذَابٌ﴾ نكرةً للدّلالةِ على التّعظيم والتّهويلِ[2] جزاءً وفاقًا لما ارتكبوهُ منْ عظيم فعلتهمْ بعَقْرِ النّاقةِ وقَتْلِها، ولكي تذهبَ فيهِ النّفسُ كلَّ مذهبٍ؛ فإنَّ النَّكرةَ أوسع معنًى من المعرفةِ وأكثر انطلاقًا واتِّساعًا.

فائدةُ وصفِ العذابِ بالقُربِ:

قـرب الـعـذابِ إيـذانٌ بـالـزَّوالِ العاجلِ

ووُصِفَ العذابُ في قولهِ تعالى: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ بالقريبِ دونَ مقارباته من الأوصافِ كالشّدّةِ والألم ونحوِها، وذلك للتّناسبِ معَ زمنِ وقوعِ المعصيةِ وهي إهلاكُ النّاقةِ[3]؛ فإنَّ العذابَ لم يطُل، ولما فيهِ من الوعيدِ والتّخويف لقوم صالحٍ ﷺ؛ للدّلالةِ على أنّهُ واقعٌ بهمْ لا محالةَ يأتيهمْ في أقربِ وقتٍ وأقصرِ زمانٍ[4].

توجيهُ المتشابهِ اللفظيّ:

القريبُ والأليمُ والـعـظـيـمُ أوصافٌ للعذابِ مرادةٌ اختيرَ لكلِّ سياقٍ الأنسبُ له

وُصف العذابُ في قصة صالح ﷺ والناقة بثلاثة أوصافٍ وهي القريبُ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾، والأليم، كما في قولهِ تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأعراف: 73]، والعظيم، كما في قولهِ تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾ [الشعراء: 156]، فختمَ كلَّ آيةٍ من الآياتِ الثّلاثِ بغيرِ ما ختمَ به الأخرى، فيُسألُ عن الفرقِ بينَ تلك الأوصاف؟

---

(1) الاستعارة المكنية "أن يذكر لفظ المشبّه مرادًا به حقيقته، ويدلّ على أنّ القصد تشبيهه بغيره بذكر شيء من لوازم ذلك الغير"، يُنظر: السبكي، عروس الأفراح: 2/197. وذلك كقول الشاعر: وإذا المنيّة أنشبت أظفارها.

(2) وهو شائع عند البيانيين، يُنظر: القزويني، الإيضاح: 2/36.

(3) السمعاني، تفسير القرآن: 2/440، وابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/185.

(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3726.

والجوابُ: أنّ العذابَ القريبَ مناسبٌ لما بعدهُ من قولهِ تعالى: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ فقدّرَ المدّةَ الّتي بينهُم وبينَ إهلاكِهم، وهيَ مدّةٌ قريبةٌ[1]، أمّا العذابُ الأليمُ فهو تحذيرٌ على طريقِ العموم؛ فهو عذابٌ يؤلِمُكُمْ وينالُ منكُمْ، وهو لا ينافي القَريبَ، وأمّا الوصفُ بالعظيم فقدَ توعّدهمْ بعذابِ الاستئصالِ، وهو يومٌ عظيمٌ عليهمْ؛ فجاءَ بهذهِ الألفاظِ المختلفةِ المعاني لاختلافِ مواضعِها المقتضيةِ لهذا التّباينِ والاختلافِ[2]، مع استحضارِ أنَّ العذاب كان أليمًا عظيمًا قريبًا، ولا تعارُضَ بينها، وإنَّما اختار الوصف الأليقَ بالسِّياق الوارد فيه، وهنا مَكْمَنُ براعةِ اختيارِ النَّظم القرآنيِّ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الوذر والترك:

أمرَ صالحٌ ﷺ قومَه في قولهِ تعالى: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ بعدم التّعرضِ للنّاقةِ؛ فجاءَ بالفعلِ ﴿فَذَرُوهَا﴾ وهو من الوذْرِ ومعناهُ: التّقطّعُ ومفارقةُ الشّيءِ وانفصالهُ والتّخلّي عنهُ[3]، ففي هذا الفعلِ تركٌ بالكلّيةِ، وهو مناسبٌ لشدّةِ التّحذيرِ من التّعرضِ لها، ولمْ يُستعملْ الفعلُ (اتركوها)؛ لأنَّ "التّركَ عندَ العربِ تخليفُ الشّيء في المكانِ الذي هو فيهِ والانصرافُ عنه، ولهذا يسمّونَ بيضةَ النّعامةِ إذا خرجَ فرخُها تريكةً؛ لأنَّ النّعامةَ تنصرفُ عنها"[4]، وهذا المعنى لا يناسبُ ما كانتْ عليهِ النّاقةُ منْ حركةٍ وانتقالٍ أكلًا وشربًا وحلبًا.

الوذْرُ هو التّقطّعُ ومفارقةُ الشّيءِ وانفصالُهُ، والتّركُ الانصرافُ عن الشّيءِ

المسّ واللّمس:

عبّرَ النظم القرآنيّ عن إصابةِ قوم صالحٍ ﷺ النّاقةَ بالأذى بقولهِ تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ فجاءَ بفعلِ المسِّ، وهو "مطلقُ

المسّ مطلقُ الإصابةِ، واللّمسُ أخصُّ لما فيهِ من الإدراكِ والمعاني النّفسيةِ

(1) ابن الزبير، ملاك التأويل: 1/200.
(2) الإسكافي، درّة التنزيل: 2/615 - 616.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: 2/709.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 124.

الإصابةِ ويكونُ بينَ الحيوانِ وغيرِه، واللّمسُ أخصُّ منهُ لما فيهِ من الإدراكِ"[1]، ولَمّا أرادَ الحقُّ سبحانهُ أنْ يحذّرهمْ أشدّ التّحذيرِ ذكرَ لهمْ المسَّ، وهو مبتدأُ الأذى؛ فاللّمسُ داخلٌ فيهِ من بابِ أولى؛ لأنّهُ بمعنى الإصابةِ على وجهِ الإطلاقِ؛ فهو أليقُ بسياقِ ما نهاهمْ عنهُ، ثمَّ إنَّ اللّمسَ أخصّ من المسِّ لما فيهِ من الإدراكِ وتحقّقِ المعاني النّفسانيةِ، وهو ما لا يتوافرُ في الحيوانِ؛ فهذا سببٌ ثانٍ لجودةِ التّعبيرِ بالمسِّ وبلاغتهِ في هذا الموضعِ.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 9/322.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 21 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك :978-9948-768-18-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 21 : المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي :978-9948-768-18-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725944 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»